﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨﴾ [هود: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَقالاتُ الكافرينَ مَظِنَّةٌ لِمعاجلتِهم بالعذابِ، واللهُ تعالى يُعاملُهُم بالإمهالِ لا بالإعجالِ

لمّا حَكَى اللّه تعالى عَنِ الكُفّارِ أنَّهُم يُكَذِّبونَ الرَّسولَ ﷺ بِقَولِهِم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ عطفَ عليه نَوعًا آخَرَ مِن أباطيلِهِم، وهو أنَّهُ مَتى تأخَّرَ عَنهُمُ العَذابُ الَّذي تَوَعَّدَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ أخَذُوا في الاستِهزاءِ، وأنكروا إنذارَ رسولِ اللّه ﷺ لَهُم بعذابِ الدّنيا والآخرةِ، وكانوا يَقولونَ: ما السَّبَبُ الَّذي حَبَسَهُ عَنّا؟ فَأجابَ اللّه تعالى: بأنَّهُ إذا جاءَ الوَقتُ الَّذي عَيَّنَهُ اللّه لِنُزولِ ذَلِكَ العذابِ الّذي كانوا يَستهزِئونَ بِهِ لَم يَنصَرِفْ عَنهُم، وأحاطَ بهم ذلكَ العذابُ[1]، وأيضًا لمّا كانَ ما تَقَدَّمَ عنهُم مِنَ الأفعالِ القبيحةِ، ومَضى مِنَ الأقوالِ المُنكَرةِ مَظِنَّةً لِمُعاجلتِهم بالعذابِ، وكانَ الواقعُ أنَّه تعالى يُعامِلُهم بالإمهالِ فَضلًا منه وكَرَمًا، حَكَى مَقالَتَهُم في مُقابلةِ رحمتِهِ لَهُم، فجاءَت هذهِ الآيةُ[2]، وأيضًا في هذه الآيةِ، والّتي قبلَها وَصفُ فَنٍّ مِن أفانينِ عِنادِ المُشركينَ، وتَهَكُّمِهِم بالدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، فإذا خَبَّرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بالبَعثِ، وأنَّ شِركَهُم سَبَبٌ لِتَعذيبِهِم جَعَلوا كَلامَهُ سِحرًا، وإذا أنذَرَهُم بِعُقوبَةِ العَذابِ على الإشراكِ استَعجَلوهُ، فإذا تَأخَّرَ عَنهُم إلى أجَلٍ اقتَضَتهُ الحِكمَةُ الرَّبّانِيَّةُ استَفهَموا عَن سَبَبِ حَبسِهِ عَنهُمُ استِفهامَ تَهَكُّمٍ، ظَنًّا أنَّ تَأخُّرَهُ عَجزٌ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٍ﴾: تُطلَقُ الأمّةُ على الأصلِ، والمَرْجِعِ، والجَماعَةِ، والدِّينِ، وكلُّ جيلٍ مِنَ النّاسِ أمَّةٌ على حدةٍ، والأمَّةُ الحين أو مُدّةٌ مِنَ الزّمنِ مُتتابعةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، وذهبَ بعضُ اللّغويّينَ إلى أنَّ المرادَ بالأمّةِ انقضاءُ جيلٍ مِنَ النّاسِ، ومجيءُ جيلٍ آخرَ، كأنَّهُم راعَوا أنَّها الأمَدُ الَّذي يَظهَرُ فيهِ جيلٌ، فَأُطلِقَت على مُطلَقِ المُدَّةِ، فيكونُ اللّفظُ على أصلِهِ مِن معنى الاجتماعِ، فأصلُ الأمِّ لكلِّ شيءٍ هو المَجمَعُ والمَضَمُّ، ومنه الأُمُّ: الوالدةُ؛ لأنَّ أولادَها يرتبطون بها، وهي أصلُهُم ومَجمَعُهُم، و﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ في الآية بمعنى إلى انقضاءِ أمَّةٍ مِنَ النّاسِ، أو بمعنى إلى مُدّةٍ ووقتٍ مَعلومٍ[1].

2) ﴿يَحۡبِسُهُۥٓ﴾: يدورُ معنى الحبسِ على مَنعِ الشَّيءِ مِنَ الانبعاثِ بحيثُ لا ينفذُ ولا يتسيَّبُ، فهو بمعنى إلزامِ الشَّيءِ مَكانًا لا يَتَجاوَزُهُ، ومنه: حَبسُ اللِّصِ، ومِن معنى الإمساكِ عنِ الانطلاقِ قولُهُ تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وحَبسُ الشَّيءِ: منعُهُ أو تأخيرُهُ لمدَّةٍ مَعلومةٍ، ومعنى ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ ما يَمنَعُهُ مِن وقوعِ العذابِ أو ما يؤخِّرُهُ[2].

3) ﴿مَصۡرُوفًا﴾: يدورُ معنى الصَّرفِ على تقلُّبِ الشّيءِ، وتحوّلِهِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالِهِ بغيرِهِ، والصَّرفُ أن تَصرِفَ إنسانًا عَن وجهٍ يُرِيدُهُ إلى مَصرِفٍ غَيرِ ذَلِكَ، ويُقالُ: صَرَفتُ الرّجلَ عنّي فانصَرَفَ؛ أي: رددتُهُ مِن حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، ومنهُ تصريفُ الرّياحِ: تحوُّلُها مِن جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ؛ أي: جَنوبًا وشمالًا مثلًا، وكذلكَ تصريفُ السُّيُولِ والأمورِ، وتصريفُ الآياتِ الإتيانُ بها مِن جهاتِ التّرغيبِ والتّرهيبِ والإعذارِ والإنذارِ وغيرِها. والحرفُ الّذي تُعدَّى به (إلى، عن) يُوَجِّهُ معنى لفظِ الصَّرفِ، و﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾؛ بمعنى: ليسَ العذابُ مَدفوعًا عنهُم، أو ليسَ مُتحوِّلًا عنهُم[3].

4) ﴿وَحَاقَ﴾: يدورُ معنى الحَوقِ أو الحيقِ - على الخلافِ في أصلِ الكلمةِ - على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم)، والرّاغب:، المفردات: (أمّ)، وابن جرير، جامع البيان: 15/252، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/126.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حبس)، وابن جرير، جامع البيان: 15/254، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صرف)، وابن جرير، جامع البيان: 15/254، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129.

الإحاطةِ بالشّيءِ بحيثُ يأتي عليه كلِّه، ومنه: الحوق المِكْنسَةُ، وحُقتُ البَيت حَوْقًا: كنستُهُ، والحَيقُ ما يحيطُ بالإنسانِ مِن مَكرٍ أو سُوءٍ يعملُهُ فَيَنزِلُ ذَلِك بِهِ، ويُقالُ: حاقَ بِهِ العذابُ؛ أي: أحاطَ به، بحيثُ يحلُّ به ويصيبُهُ، مُؤثِّرًا فيه، ومنه حاقَ السّيفُ: أثَّرَ وقطعَ بحيثُ يكونُ قطعُهُ غائرًا، واللّفظُ يُستعمَلُ في المكروهِ مِنَ الأمورِ، ومعنى ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نَزَلَ بهمُ العذابُ، وأصابَهُم مُحيطًا بهم[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـذابُ الله إذا أتـى لا يصرفُه صـــارفٌ، إذ لا رادَّ لِحكمِهِ، ولا مُعقِّبَ لكلماتِهِ

ولَئِنْ أخَّرنا عن هؤلاءِ المشركين العذابَ إلى أجلٍ معلومٍ فاستبطؤوه، لَيقولُنَّ استهزاءً وتكذيبًا: أيُّ شيءٍ يمنعُ هذا العذابَ مِنَ الوقوعِ إنْ كان حقًّا؟ ألَا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ لا يستطيعُ أنْ يصرفَهُ عنهُم صارفٌ، ولا يدفعَهُ دافعٌ، وأحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ عذابُ ما كانوا يَستهزئونَ بِهِ قبلَ وقوعِه بهِم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

جـمـعُ أفـانـين الكفرِ وصنوفِ الـعـنـادِ بـيـانٌ لسببِ تعذيبِ الـكـفـرةِ مِـنَ العبادِ

دلالةُ الواو العاطفةِ في: ﴿وَلَئِنْ﴾:

الواو عطفٌ على ما سبقَ، ودلالةُ العطفِ أنّ جمعَ أفانين عنادِ الكافرينَ، وتهكمهم بالدّعوةِ الإسلاميّةِ بعضِها إلى بعضٍ، تقبيحٌ لَهُم، وتَشنيعٌ عليهم، وبيانٌ لِسببِ كفرِهِم.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ:

استـهـزاؤُهُـم بـتـمـتـيـعِـهِـم بتأخيرِ العذابِ مُحقَّقُ الوقوعِ لا مَنأى عنهُ

أسلوبُ القسمِ مُشعِرٌ بتحقُّقِ وقعِ المُقسمِ عليه، فقولُهُم المُستهزِئُ السّاخِرُ واقعٌ لا مَحالةَ، وهو تأكيدٌ لحصولِ سببِ عذابِهِم.

فائدةُ تتابعِ التّأكيدِ في الجملةِ الشّرطيّةِ:

تتابَعَ التّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ وجزائِها كما في الآيةِ السّابقةِ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيق)، والرّاغب، المفردات: (حاق)، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/231، وابن الهائم، التّبيان، ص: 155.

فجاءَتِ اللّامُ المُوَطِّئَةُ لِلقَسَمِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾؛ لأنَّه بتقديرِ: واللهِ إنْ أخَّرنا عنهُمُ العذابَ، وأُكِّدَتِ الجملةُ كذلك باللّامِ الواقعةِ في جوابِ الشّرطِ وبنُونِ التَّوكيدِ في قولِهِ: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾؛ فأفادَ تتابعُ التّأكيدِ تَنزيلَ الكافرينَ المُنكرينَ لِلبعثِ مَنزلَةَ المُتَرَدِّدِ في صُدُورِ السّؤالِ مِنهُم لِغَرابَةِ صُدُورِهِ مِنَ العاقِلِ، فيكونُ التّأكيدُ القويُّ مُستَعمَلًا في لازِمِ مَعناهُ كذلك، وهو زيادةُ التَّعجيبِ مِن سؤالِهِم، وتعنُّتِهِم في الإنكارِ واستعجالِهُمُ العذابَ.

التّعجيبُ مِن حالِ الكافرين في الإنكارِ، وغرابةُ استعجالِهُمُ العذابَ

فائدةُ التّعبيرِ بالمُسندِ إليه ضميرِ العظمةِ المتّصلِ بالفعلِ:

قولُهُ ﴿أَخَّرْنَا﴾، لمّا كانَ الضّميرُ (نا) هنا لإفادةِ تعظيمِ المُتكلِّمِ، وهو اللهُ تعالى، دلَّ على أنَّ المعنى لَئِن أخَّرنا عنهُمُ العذابَ بما لنا مِنَ العظمةِ الّتي لا يَفوتُها شيءٌ[1].

تأخيرُ العذابِ أو تعجيلُهُ بما للهِ مِنَ العظمةِ الّتي لا يفوتُها شيءٌ

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في ﴿أَخَّرْنَا﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿أَخَّرْنَا﴾ هنا بمعنى تأجيلِ ميعادِ العذابِ بعدَ وقتِهِ أفادَ أنَّهُم كانوا قد استحقُّوا العذابَ؛ بكفرِهِم وتكذيبِهِم رسولَ اللهِ ﷺ، وإنكارِهِم للبعثِ مِن بعدِ الموتِ، فكانَ تأخيرُ العذابِ وبالًا عليهم؛ لأنَّهم ازدادوا كُفرًا؛ إذِ استعجلوهُ، وقالوا: ما يحبسُهُ؟ استهزاءً وسخريةً، ففيه معنى التّعجيبِ مِن حالِهِم، إذ كانَ ينبغي لِلعاقلِ أن يتفكَّرَ في أمرِهِ، ويَنتفعَ مِن تأخيرِ العذابِ، فيتوبَ إلى اللهِ، ويحمدَهُ على تأخيرِ العذابِ، ولكنَّهُمُ ازدادوا كفرًا وتكذيبًا، فقالوا: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾، والتّعبيرُ بالماضي يفيدُ تحقُّقَ وقوعِ العذابِ.

تأخيرُ العذابِ على الكافرينَ يكونُ وَبالًا عليهم غالبًا

دلالةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَنْهُمُ﴾:

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنْهُمُ﴾ على المفعولِ به ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ للاهتمامِ بهِم، وكأنَّ تأخيرَ العذابِ خصوصيّةٌ لهم؛ لِتذكيرِهِم بمنَّةِ

تذكيرُ الكافرينَ بمنَّةِ الإمهالِ؛ لعلَّهُم يرعوونَ عن غيِّهِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.

الإمهالِ لعلَّهُم يَتوبونَ ويَتذكرونَ، ولِمُناسبةِ ما سبقَهُ في السّياقِ نفسِهِ مِن تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾ [هود: 3]

دلالةُ (اللّام) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

العذابُ يَتناولُ كلَّ ألوانِهِ، وفي إتيانِهِ المَقدورِ وأوانِهِ

(أل) هنا للعهدِ، والمعهودُ ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾ [هود: 3]، فيكونُ المرادُ عذابَ الآخرةِ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ العذابَ الّذي يكونُ بالقتالِ في الدّنيا مثلَ يومِ بدرٍ، والأولى أن تكونَ (اللّام) لِلجنسِ فيتناولُ اللّفظُ العذابَ الشّاملَ لِلكفرةِ دونَ ما يُخَصُّ ببعضٍ منهُم، سواء أكانَ في الدّنيا أم في الآخرةِ[1].

سرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾:

العذابُ لا يأتي إلّا بعدَ اجتماعِ صروفِ الإنذارِ والإعذارِ

جَعَلَ النّظْمُ الكريمُ انتهاءَ تأخيرِ العذابِ إلى ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾، ولم يقُلْ مثلًا: ولَئِن أخّرنا عنهُمُ العذابَ إلى وقتٍ معلومٍ؛ لأنَّ الأمّةَ المعدودةَ دالَّةٌ على معنى انقضاءِ جيلٍ؛ لإفادةِ أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهُم يكونُ إلى حينِ اجتماعِ الوقتِ المُحدَّدِ لنزولِ العذابِ بهِم؛ لِلإشعارِ بأنَّه لايأتيهُمْ إلّا بعدَ اجتماعِ صروفِ الإنذارِ والإعذارِ لَهُم، لِيناسبَ مَعنى التَّدرُّجِ في الأمرِ والحكمةِ فيهِ، كما هو حالُ التَّدرُّجِ والحكمةِ في خلقِ السّماواتِ والأرضِ وما فيهما ممّا ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ.

نكتةُ الوصفِ في: ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾:

كلُّ ما كانَ مَعدودًا فهو قليلٌ، في اعتبارِ ما يُقدَّمُ مِن دليلٍ

لمّا كانَ لفظُ ﴿أُمَّةٖ﴾ دالًّا على وقتٍ ليسَ بالقليلِ؛ لأنَّه يكونُ بانقضاءِ جيلٍ مِنَ النّاسِ، دلَّ على أنَّ كثرةَ الوقتِ هي بالنّسبةِ إليهم، فلمّا تقيَّدَ بالصّفةِ ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾ آذنَ بأنَّها محصورةُ الأيّامِ؛ أي: قصيرةٌ مَعلومةٌ عندَنا؛ أي: عندَ اللّه تعالى، فتومِئُ الصّفةُ أنَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/130، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/28، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/215.

المدّةَ لَيسَت مَديدَةً كما يَتوهَّمونَ مِن تتابعِ السّنين عندَهُم؛ لأنَّهُ شاعَ في كلامِ العَرَبِ إطلاقُ العَدِّ والحِسابِ ونَحوِهِما على التَّقليلِ؛ لأنَّ الشَّيءَ القَليلَ يُمكِنُ ضَبطُهُ بالعَدَدِ، ولذَلِكَ يقولونَ في عَكسِهِ: بغَيرِ حسابٍ[1]، فالعذابُ قريبٌ منهُم ليسَ ببعيدٍ، وفي الكلامِ معنى التّهديدِ والتّخويفِ.

الغرضُ مِنَ اللّامِ في: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

هذه اللّامُ تفيدُ التّأكيدَ، كما أنَّها تفيدُ التّنبيهَ على القسمِ المحذوفِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾.

جحدُهُم نعمةَ التّمتيعِ أمرٌ مُتيقّنٌ لتأصُّلِ الجحودِ في طبعِهِمُ الذّميمِ

مناسبةُ تكريرِ الفعلِ: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

كَرَّرَ الفعلَ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾؛ للإيذانِ بمُغالاتِهِم في كفرِهِم، وأنَّ قولَ الكفرِ يَتجدَّدُ منهُم في كلِّ مُناسبةٍ، فَهُم مُستمرُّونَ عليهِ.

الكافرونَ يتجدَّدُ كفرُهُم، كما أنَّ المؤمنينَ يَتجدَّدُ إيمانُهُم

مناسبةُ التّعبيرِ بالضّميرِ في: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

جاءَ فاعلُ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ ضميرًا، ولم يأتِ بالاسمِ الظّاهرِ؛ أي: لم يقُل: (لَيقولَنَّ الّذين كفروا)؛ ليشيرَ الضّميرُ إلى الاسمِ الظّاهرِ العائدِ إليه المُقرَّرِ في أذهانِ السّامعينَ في قولِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مع وصفِ التّكذيبِ وإنكارِ البعثِ في قولِهِم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ بمعنى: أنَّ الّذين قالوا: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ هُم نفسُهُم الّذين كفروا ووصفوا القولَ بالبعثِ أو الرّسولَ بالسِّحرِ كما تَقدَّمَ؛ إشعارًا بتكثُّرِ طغيانِهِم، وأنّهم ازدادوا كُفرًا إلى كُفرِهِمُ السّابقِ، فيكونُ مجيءُ الضّميرِ على معنى استجماعِ معنى الذّاتِ العائدِ إليها مع الأوصافِ السّابقةِ واللّاحقةِ.

تنوُّعُ طغيانِ الكافرينَ، بتنوُّعِ تكذيبِهِمُ الضّالِّ، وعنادِهِمُ المهينِ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالاستفهامِ المجازيِّ في السّياقِ الإعجازيِّ:

لمّا كانَ هؤلاء القوم الكافرون مُكذِّبينَ لرسولِ اللّه ﷺ ومُنكِرينَ

الاستفهامُ لإنكارٍ لا للاستفسارِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/10.

لِلبعثِ مِن بعدِ الموتِ كانَ استفهامُهُم على سبيلِ المجازِ، فلم يَقصدوا السُّؤالَ عن سببِ المنعِ مِن مجيءِ العذابِ، بل قالُوهُ على سبيلِ التّكذيبِ وإنكارِ وقوعِ العذابِ عليهم أصلًا؛ لأنّهُم أرادوا مِنَ الاستفهامِ الاستعجالَ بالعذابِ، والتّقديرُ: أيُّ شيءٍ يمنعُ العذابَ مِنَ المجيءِ؟، وإنَّما كانوا يقولونَهُ استعجالًا لِلعذابِ على سبيلِ الاستهزاءِ، لقولِهِ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، ومرادُهُم إنكارُ المجيءِ والحَبسِ رأسًا لا الاعترافُ بهِ، والاستفسارُ عَن حابِسِهِ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

استعمالُ (ما) لِما يَعُمُّ العالمَ وغيرَهُ

وردتْ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ دونَ (مَن)؛ لأنّها قد تُستعمَلُ لِلعاقلِ (العالم) وغيرِ العاقلِ (غير العالم)؛ لِلإشعارِ بشدّةِ تكذيبِهِم واستهزائِهِم، لِيشمَلَ التّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ أيَّ مانعٍ يمنعُ العذابَ مِنَ الوقوعِ؛ والمعنى: أيُّ شيءٍ من الأشياءِ يَحبِسُ العذابَ[2]؟.

دلالةُ الفصلِ لجملةِ ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾:

مُخالفةُ الكافرينَ لِلمَعقولِ في السّؤالِ عن تأخيرِ العذابِ، دليلٌ على خطئِهِم

هذِهِ الجُملَةُ واقِعَةٌ مَوقِعَ الجَوابِ عَن سؤالِهِم، فلذَلِكَ جاءَت بطريقِ الفصلِ مِن دونِ واو العطفِ، كَما تُفصَلُ المُحاوَرَةُ، وهذا تَهديدٌ وتَخويفٌ بأنَّهُ لا يُصرَفُ عَنهُم، ولَكِنَّهُ يُؤخَّرُ، ولمّا كانَ السّؤالُ عن سببِ المنعِ؛ أي: أيُّ شيءٍ يمنعُهُ؟ كانَ مُقتضَى الجوابِ أن يكونَ مُوافِقًا لِلسّؤالِ، لكنَّه أعرضَ عن جوابِهِم، وأخبرَ عنِ العذابِ أنَّه ليسَ مَصروفًا عنهُم، وأنَّهُم عاجزونَ عن دفعِهِ عندَ وقوعِه؛ إشعارًا بأنَّ العاقلَ لا ينبغي أن يسألَ عن مثلِ ذلكَ إلّا بعدَ قُدرتِهِ على الدّفعِ، فهو بمثابةِ إقامةِ الدّليلِ على خَطئِهِم، وإعلامًا بأنَّهُم عَكسوا في

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/64، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/357، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/48، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/574.

السّؤالِ، فخالَفوا المطلوبَ لِقلَّة عقولِهم، كما أنَّ فيه تحقيقًا لوقوعِ العذابِ؛ لأنَّ ما استهزؤوا بهِ، لاحقٌ بهم لا مَحالةَ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بأداةِ التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾:

تحذيرُ الكافرينَ مِن غفلتِهم عندَ وقوعِ العذابِ تنبيهٌ لَهُم مِن سوءِ المآبِ

افْتُتِحَ الكَلامُ الواقعُ مَوقعَ الجوابِ بحَرفِ التَّنبيهِ؛ لِلإيذانِ بتنبيهِ المؤمنينَ، وتذكيرِهم بيومِ وقوعِ العذابِ على الكافرينَ لِيطمَئِنُّوا إلى إيمانِهم، وللتَّنبيهِ الزّاجرِ لِلكافرينَ لِغفلتِهم عنِ الوعيدِ بوقوعِ العذابِ، ولِلإشعارِ بأنَّهُم سيكونونَ غافِلينَ كذلكَ حينَ وقوعِ العذابِ، ولِلاهتمامِ بالخَبرِ لِتحقيقِهِ وتقريرِ مَضمونِهِ، ولإدخالِ الرَّوعِ في ضمائِرِهم، كما تتضمَّنُ الأداةُ معنى التّحذيرِ مِن نزولِ العذابِ بهِم؛ لمناسبةِ السّياقِ[2].

الغرضُ مِن تقديمِ الظّرفِ ﴿يَوْمَ﴾:

إتيانُ العذابِ مُخصَّصٌ بيومٍ معلومٍ، ووقتٍ مُحدَّدٍ مَوسومٍ

لمّا كانَ أصلُ الكلامِ (ألَا ليسَ مَصروفًا عنهُم يومَ يأتيهم)، دلَّ على أنَّ ظرفَ الزّمانِ قُدِّمَ عن أصلِ مَوضعِهِ، وذلكَ لِلإيماءِ بأنَّ إتيانَ العَذابِ لا شَكَّ فيهِ، فهوَ مُخصَّصٌ بيومٍ مَعلومٍ، حتَّى إنَّهُ يُوَقَّتُ بوَقتٍ[3].

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿يَوْمَ﴾:

إبهامُ وقتِ نزولِ العذابِ على الكافرينَ؛ لِلتَّهويلِ والتَّخويفِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿يَوْمَ﴾؛ لِيفيدَ الدّلالةَ على مُدّةٍ مِنَ الزّمانِ قلَّت أو كَثُرَت، ففيهِ إبهامٌ في تحديدِ وقتِ نزولِ العذابِ فيهِم؛ لِتخويفِهم وتهويلِ العذابِ عليهِم.

دلالةُ النّفي بـ ﴿لَيْسَ﴾:

دلالةُ (ليس) على نفي الحالِ والاستقبالِ، بقرينةِ السّياقِ في المقالِ

أفادَ النّفيُ بـ ﴿لَيْسَ﴾ هنا نفيَ الحالِ كما هو الأصلُ في دلالةِ (ليس)، ونفيَ الاستقبالِ ممّا يدلُّ عليه السّياقُ؛ أي: ليسَ العذابُ مَصروفًا عنهُم لا في الحالِ، ولا في المُستقبلِ إلى أن يَنزِلَ بهِم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(2) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 4/58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الخبرِ ﴿مَصْرُوفًا﴾:

لم يقُلْ: (ليسَ مَحبوسًا عنهُم) كما جاءَ في السّؤالِ؛ لنكتةٍ هي أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ بهِم يكونُ قاصدَهُم فلا يتحوَّلُ مَسلكُهُ، ولا يتغيَّرُ طريقُهُ إليهِم، فلا يرفعُهُ رافعٌ أبداً إنْ أُريدَ بهِ عذابُ الآخرةِ، ولا يدفعُهُ دافعٌ، بل هو واقعٌ بهِم إنْ أُريدَ به عذابُ الدّنيا.

العذابُ إذا نَزَلَ بقومٍ لا يتحوَّلُ مَسلكُهُ، ولا يتغيَّرُ مهيعُهُ

مناسبةُ مجيءِ اللّفظِ بصيغةِ الاسمِ المبنيِّ للمفعولِ:

لمّا قالَ: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ دلَّ على تهويلِ الفعلِ والمفعولِ بهِ؛ أي: تعظيمُ وقوعِ العذابِ، وهو حَدَثُ الوقوعِ، وتفخيمُ شأنِ العذابِ نفسِهِ.

تعظيمُ حدثِ العذابِ المصبوبِ، وتعظيمُ شأنِهِ على الكافرِ المكروبِ

مناسبةُ ورودِ لفظِ ﴿مَصْرُوفًا﴾ مَنفيًّا بـ ﴿لَيْسَ﴾:

لم يقُل: ألَا يومَ يأتيهِمْ هو مَصروفٌ إليهِم بطريقِ الإثباتِ؛ لإفادةِ نفيِ صرفِهِ عن أيِّ جهةٍ سوى الجهةِ الّتي هُم فيها، وأنْ لا أحدَ يستطيعُ أن يُحوِّلَ صرفَ العذابِ عنهُم، لا بكثرةِ أعوانٍ، ولا بحيلةِ مُحتالٍ، ولا بقوَّةٍ مِن قِبَلِهم، ولا مِن قِبَلِ آلهتِهم، فيفيدُ النّفيُ بـ ﴿لَيْسَ﴾ مع تعلُّقِ اسمِ المفعولِ بحرفِ المجاوزةِ (عن) معنى الحصرِ، وقَصْرِ العذابِ عليهم.

لا يُصرفُ العذابُ، بوفرةِ أعوانٍ، ولا بكثرةِ غلابٍ

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

تحتملُ الواوُ أن تكونَ عاطفةً، وأن تكونَ حاليَّةً[1]، فإذا كانَت عاطفةً أفادَت عطفَ جملةِ ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ على ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، فيكونُ الفعلُ ﴿لَيْسَ﴾ على معنى نفيِ الحالِ والاستقبالِ، وهو الظّاهرُ، ويكونُ حرفُ التّنبيهِ داخلًا على الجملتينِ كلٍّ على حدةٍ؛ إيذانًا بتحقيقِ مَضمونِ الجملتين، ولِلتّنبيهِ على غفلةِ الكافرينَ عنِ الوعيدِ في الجملةِ الأُولى، وعن وقتِ وقوعِ العذابِ ونزولِهِ بهِم في الجملةِ الثّانيةِ.

تنوُّعُ معنى الواوِ يفيدُ تنوُّعَ المعنى في الآيةِ الكريمةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.

وتحتملُ الواو أن تكونَ حاليَّةً؛ بمعنى: أنّ العذابَ ليسَ مَصروفًا عنهُم في وقتِ وقوعِ العذابِ وحلولِهِ فيهم، فإذا نَزَلَ فيهِم لا ينتقلُ عنهُم، فلا يُدفَعُ ولا يُتحوَّلُ، فيكونُ الفعلُ ﴿لَيْسَ﴾ على معنى النّفي في المُستقبلِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

المرادُ مِن حوقِ العذابِ إحاطتُهُ بالكافرينَ، وإصابتُهُم حتّى يغوصَ فيهِم

لمّا كانَ لفظُ ﴿وَحَاقَ﴾ بمعنى الإحاطةِ بالشّيءِ واستدارتِهِ بهِ، ولمّا كان اللّفظُ لايأتي إلّا في المكروهِ، كانَ المرادُ من حوقِ العذابِ بهم الكنايةَ عن إصابتِهِم بهِ، ونزولِهِ بهِم جميعًا، بحيثُ يكونُ غائرًا فيهم؛ أي: إنَّهُ حالٌّ بِهِم حُلولًا لا مَخْلَصَ مِنهُ بِحالٍ لإحاطتِهِ بهِم جميعًا[1].

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

الاستهزاءُ أعظمُ جُرمٍ، يستتبعُ أشملَ العذابِ وأشدَّهُ

الباءُ سببيّةٌ، بمعنى: حاقَ بهِم ما كانوا بسببِهِ يَستهزئونَ، وذِكرُ الأسبابِ مُقنعٌ في الأحكامِ، فالإحاطةُ بهِم ودمارُهُم نتيجةُ استهزائِهِم، والاستهزاءُ بذاك مِن أعظمِ الجُرمِ الصّادرِ مِن أهلِ الكُفرِ.

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

معادُ الضّميرِ المستفادِ تأكيدٌ على المرادِ

يعودُ الضّميرُ إلى الاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾؛ أي: العذابُ الّذي كانوا يَستَعجلونَ به استهزاءً[2].

سببُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾:

تَسارُعُ الكافرينَ إلى الاستهزاءِ بوعيدِ القرآنِ دليلٌ على سفاهةِ النّكرانِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ على الفعلِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إشارةً إلى شِدَّةِ إقبالِهِم على الهُزءِ بهِ، حتّى كأنَّهُم لا يَهزَؤونَ بغَيرِهِ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

في التّعبيرِ عنِ العذابِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ تهويلٌ لهُ، وأفادَت جملةُ الصّلةِ ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الإيذانَ بأنَّ سببَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.

نزولِ العذابِ بهم وإحاطتِهِ بهم هو استهزاؤُهُم بقولِ الرّسولِ ﷺ وإنكارُهُم لهُ[1].

الإنكارُ والاستهزاءُ يجلبان أشدَّ العذابِ، وأسوأَ البلاءِ

نُكتَةُ مَجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ:

قولُهُ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نجدُ مُقتضَى الظّاهرِ المناسبِ لما في سياقِ الآيةِ، في كونِ العذابِ سيأتيهم في المُستقبلِ أن يقولَ: (ويحيقُ بهم)، لكنّه جاءَ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، فعُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ ليكونَ واردًا على عادةِ اللّه تعالى في أخبارِهِ؛ لأنَّها في تحقُّقِها، وتيقُّنِها بمنزلةِ الكائنةِ المَوجودةِ؛ ليكونَ مُبالغةً في تأكيدِ الوقوعِ وتقريرِهِ، وفي ذلكَ مِنَ الفَخامةِ والدّلالةِ على عُلُوِّ شأنِ المُخبِرِ وتَقريرِ وُقوعِ المُخبَرِ بهِ ما لا يَخفى، ففي التّعبيرِ بلفظِ الماضي ﴿وَحَاقَ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ؛ لاستعارةِ زمنِ المضيِّ لِلمُستقبلِ، وفيه مُبالغةٌ في التَّهديدِ، لإبرازِ ما سَيقعُ في مَعرِضِ الواقعِ مِن قبيلِ عطفِ المَعلولِ؛ والمعنى: هو آتيهم عن قريبٍ فَلْيَعتَدُّوا لِذلكَ[2].

أخبارُ اللهِ تعالى في تحقُّقِها، بمَنزِلَةِ الموجودةِ الكائنةِ يقينًا

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ بلفظِ الاستهزاءِ:

لمّا أرادوا بقولِهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ استعجالَ العذابِ؛ لِكونِهم مُكذِّبينَ لرسولِ اللّه ومُنكِرينَ وقوعَ العذابَ، كما تَقَدَّمَ، كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (وحاقَ بهم ما كانوا بهِ يَستعجلونَ)، فجاءَ الكلامُ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، لمّا وَضَعَ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَوضِعَ (يَستعجلونَ)؛ لِلإيذانِ بأنَّ استعجالَهُم كانَ استهزاءً، فكانَ المرادُ مِنَ الاستعجالِ في السّؤالِ الاستهزاءَ؛ أي: كانَ كنايةً عنِ الاستهزاءِ بوقوعِ العذابِ وبالقرآنِ وبالرّسولِ المُقتضي لِلتّكذيبِ[3].

استعجالُ الكافرينَ بالعذابِ على معنى الاستهزاءِ مِن سوءِ التّقديرِ لِلعواقبِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/215، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/24.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ لِلإشعارِ بتجدُّدِ استهزائِهِم بالعذابِ، واستمرارِهِم عليهِ.

دلالةُ الهمزةِ والسّينِ والتّاءِ في: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

أفادتِ الهمزةُ والسّينُ والتّاءُ التّنبيهَ على أنَّهُم كانوا يُوجِدونَ الهُزءَ بالعذابِ وبالوعيدِ عليه إيجادًا عظيمًا، حتّى كأنَّهُم يَطلبونَ ذلكَ، ويَجتهدونَ فيهِ[1].

الاستهزاءُ المُتجدِّدُ أقبحُ أعمالِهِم، وأجدرُها بالتّنديدِ

اجتهادُ الكافرينَ في طلبِ الاستهزاءِ بالقرآنِ المبينِ، وبالرّسولِ الأمينِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/242.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»